حوار كاتب سوري مع حفيده (٢ من ٣)

«الثامن من آذار» حلقة على درب «سورية حافظ الأسد» والمطلوب تطوير لا جمود

□ عرض الكاتب في الحلقة الاولى تساؤلات الجيل السوري الجديد من خلال كلام منسوب الى حفيده، وأظهر بؤر القلق والثورة في المشرق العربي بعد انهيار السلطنة العثمانية، وأثر ذلك خصوصاً في سورية التي بدأت ولا تزال تبحث عبثاً عن ذاتها في صيغ العروبة، وتترك كيانها الى يومياته الصعبة كنقطة انطلاق لهدف لا كهدف في حد ذاته.
وهنا حلقة ثانية:

انطون المقدسي *

■ في رحلات المثقف السوري الى الشعب، اكتشف ذاته واسلوب عمله الذي يقوم على ان ترى في الفلاح الفقير انساناً مثلك جديراً بالاحترام. فهو «البيك» على قدم المساواة عندك. الطريق هذه شقها الشباب المثقف الذين التفوا حول اكرم الحوراني في مدينة حماة حيث تسود العلاقات الاقطاعية، اي حيث الفلاح شيء من اشياء الملاك الكبير يسخره هو وزوجته واولاده لاغراضه الشخصية: هذا لغسل الرجلين، وتلك لتقضي الليل وربما الليالي في فراشه. هؤلاء الشباب الذين كانوا طلاباً ثم صاروا محامين ومهندسين شاطروا الفلاح خبز الشعير القاسي وطبيخه العسير على الهضم وبساطه المتسخ. وعندما وثق بهم لم يطلبوا منه ان يتمرد او يطالب بمصادرة الاراضي وتوزيعها على الذين يثمروها، بل ان يتقيد بالحقوق التي يمنحها له القانون السوري. وعلى الفلاح بالمقابل ان ينجز الواجبات التي يطلب منه القانون انجازها، فبعد الآن لا اتاوات ولا سخرة ولا خدمات اضافية.

ولما شكل اكرم الحوراني «الحزب العربي الاشتراكي» عام ١٩٤٩ وجعل مكتبه في دمشق شارع ٣٠ ايار (مايو)، صار هذا المكتب بيت الفلاح حيث يستقبله عضو الحزب المناوب، يصافحه، يرحب به، يجلسه على كرسي ويقدم له القهوة المرة اذا وجدت، ويتحادث معه عن سبب انتقاله الى دمشق. واذا وجد مطالبه مشروعة كلف احد محامي الحزب بالدفاع عنه امام المحاكم. واذا كانت قضيته عصية على الحل، يستقبله رئيس الحزب اكرم الحوراني ويجعل من مشكلته قضية سياسية.

وبكلمة، فقد اعاد المثقف «العربي الاشتراكي» الى الفلاح كرامته الانسانية. وصار «المثقف العربي الاشتراكي» العدد الاكبر من المثقفين في منطقة ممتدة من حوران الى محاذاة حلب وتشمل ريف المدينة وفي المدينة ذاتها الاحياء الشعبية. لم يخذل الشعب اكرم الحوراني الذي كانت قائمته الانتخابية تنجح كاملة في انتخابات المجالس النيابية منذ عام ١٩٤٣ فالاعوام ١٩٤٧، ١٩٥٤، ١٩٦١ الى ان استعيض عن الانتخاب بالاستفتاء كما سنرى.

لم تكن الحلقة الفارغة في الشعب الذي ادرك بالغريزة مصلحته وناصر الذين يدافعون عنه، بل في ملابسة تاريخية هي الهزيمة التي لحقت بجيوشنا في معركة فلسطين ١٩٤٨، لسببين رئيسيين: تضافر القوتين الاقوى عالمياً وهما اميركا والاتحاد السوفياتي في اقامة الدولة العبرية على ارض فلسطين، والطائرات التشيكية لاسرائيل هي التي حسمت المعركة لمصلحة هذه الاخيرة. السبب الثاني، تخاذل الحاكم العربي الذي بلغ حد الخيانة عندما لم يوفر لجيوشنا الحد الادنى من مستلزمات معركة مصيرية.

هل دخل الجيش المعتدي السياسي ثاراً لكرامته؟ ام لشعوره بأن الحاكم العربي ضعيف وعاجز عن الدفاع عن وطن لا يستحقه؟ على الارجح. ولقد اكدت تجربة الوحدة المصرية-السورية ما كان واضحاً منذ الانقلاب الاول في سورية ١٩٤٩، ان حكم الجيش شمولي بالضرورة يدير البلاد بواسطة الاحكام العرفية والتشريعات الاستثنائية الاخرى.

ويبدو لي ان الاحزاب السياسية في برلمان ١٩٦١، اي بعد فك الوحدة، شوهت الحياة البرلمانية، اذ جعلت من الايديولوجيات المتعارضة عقائد لا مهادنة في الدفاع عنها. فكل حزب غرضه سحق خصمه او خصومه في حين ان الحياة البرلمانية تقوم على تسويات دوماً موقتة. على اي حال فان الجيش استخدم الوضع البرلماني المتردي هذا لازاحة الاحزاب وتسلّم الحكم في الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣.

وبقول أعم وأدق، فان سورية كانت منذ بداية اتصال المثقف بالفلاح ومحاولة المثقف انهاء العلائق الاقطاعية تنتظر ثورة اجتماعية تضمن للديموقراطية قاعدة متينة، الا ان الزمن المتسارع لم يمكن من انضاج تجربة اكرم الحوراني هذه. فالجيش قام بعملية اطلق عليها اسم «اختصار الثورة» اذ تولى بذاته مصادرة املاك كبار الملاكين وتوزيعها على الفلاحين. وحكم الجيش دوماً شمولي.

عندما توفي الرئيس جمال عبد الناصر في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٠بعدما قضى ١٥ عاماً حاكماً لمصر مطلق الصلاحية، كانت الثورة الالكترونية والمعلوماتية هي المهيمنة على العالم. لكن، يبدو ان الرئيس كان ما يزال الى حد كبير أسير بداياته، اقصد المشكلات التي تصدت لحلها «حركة الضباط الاحرار» في العام ١٩٥٢، وهي تصفية تركة السلطة الخديوية وحكم الوفد البرلماني المستمر منذ العشرينات. ومن ثم اعادة القناة الى مصر صاحبتها الشرعية وانهاء دور بريطانيا في تقرير السياسة المصرية. هذا كله تحقق عندما ربح جمال عبد الناصر معركة القناة عام ١٩٥٦. والسؤال الذي طرح عندئذ هو: كيف يمكن الانتقال من مرحلة التحرر الى مرحلة البناء؟ حيث المزلق الخطر الذي تعرضت له الثورات التحررية في العالم ومنها فيتنام والجزائر وسورية. اجل لقد حرر عبد الناصر مصر ، لكنه لم يحرر شعبها، بل رفض تحريره، فمصر، كما قال أكرم الحوراني قبيل عقد الوحدة المصرية-السورية، محكومة عرفيا منذ اربعة آلاف سنة.

عندما توفي الرئيس حافظ الاسد في حزيران (يونيو) ٢٠٠٠ كانت الثورة الالكترونية المعلوماتية صارت عولمة، اعلاماً معمماً، لبيرالية بلا حدود جعلت من اميركا سيدة العالم بلا منازع سياسياً واقتصادياً واعلامياً. ولم يكن ليخطر ببال انسان ان ١٩ انتحارياً من العالم المتخلف سينقلون في بداية القرن الواحد والعشرين الرعب الى قلب اميركا والاميركيين حكاماً وشعوباً وافراداً. ذلكم هو اصل الحرب العالمية الراهنة اقصد الحرب على الارهاب حيث تزج اميركا بطاقاتها فيها. فأنت بعد اليوم احد اثنين: اما ارهابي واما عدو للارهاب؟!

ان أحدى الخصائص الاساسية التي تميز الحكم الشمولي والتي قلما ننتبه اليها، هي انه يوقف تلقائياً وغريزياً التاريخ ليجعل من ذاته بداية مطلقة لتاريخ آخر. بعدها سوف يلحق التاريخ العام بتاريخه الخاص.

كان همّ عبد الناصر عندما تحققت الوحدة بين مصر وسورية هو جعل مصر امبراطورية عظمى وهذا ما اسميه الهرب الى الامام.

شيء آخر هو همّ حافظ الأسد: ان يعيد تكوين سورية ليجعل من هذا البلد الصغير المتعثر بمشكلاته الداخلية قوة سياسية وعسكرية تستطيع ان تلعب دوراً في تقرير سياسة الشرق الاوسط والعالم، وان يكون هو بشخصه سيد هذه اللعبة.

لقد بلغت سورية سن الرشد. صار عمرها نصف قرن منذ بداية الانتداب العام١٩٢٠. وحوالى ربع قرن منذ الإستقلال، فيجب ان تشكل كياناً سياسياً قائماً بذاته له هويته الخاصة التي ستكون سورية. الهويات الاخرى، اممية كانت ام اسلامية، عربية ام قومية سورية من مكوناتها، ولكنها ليست هي.

لقد قامت «جماعة الثامن من آذار (مارس)» بثلاثة اجراءات مهدت السبيل امام مشروع حافظ الاسد:

الإجراء الاول، وهو اخطرها شأناً، العزل المدني الذي انهى دفعة واحدة، مرة ولكل مرة، القوى السياسية الفاعلة على ساحة السياسة السورية وهي : بقايا «الحزب الوطني» و«حزب الشعب» والتجمعات القومية الاخرى، «الحزب الشيوعي» بفروعه، «الحزب القومي السوري الاجتماعي»، «الحزب العربي الاشتراكي». وايضاً حزب «البعث» اياه كما تصوره ميشيل عفلق، وكان إذ ذاك في طريقه الى التلاشي. والمفارقة هنا ان ميشيل عفلق كان ما يزال امين سر الحزب القومي، كما كان شريكه صلاح بالبيطار رئيس اول وزارة من وزارات الثامن من آذار. وكان هو مع بعض من زملائه في «البعث» من جملة اعضاء اللجنة التي قررت العزل المدني، لكأنهم كُلفوا أن يكتبوا بأيديهم صك وفاتهم، والعزل المدني موت سياسي.

الاجراء الثاني، هو المضي في مصادرة املاك كبار الملاكين وتوزيعها على الفلاحين، وهذا ما سميته واسميه «اختصار الثورة». اضف تأميم الشركات الصناعية والتجارية الكبرى، ومن ثم توسيع القطاع العام ودعمه واقامة مكتب قطع لمراقبة حركة رؤوس الاموال الاجنبية والسورية. ما جعل سيطرة الدولة كاملة على الاقتصاد والتجارة، ولم يبق للقطاع الخاص سوى محال الخدمات اليومية (اسكافي، نجار، حداد) او بائع المفرق للخضار والفواكه وسلع استهلاك العائلات اليومي.

الاجراء الثالث، اعتماد نص «بعض المنطلقات النظرية» في المؤتمر القومي السادس في تشرين (نوفمبر) العام ١٩٦٣على انه ايديولوجيا الحزب. وهذا معناه رفض كامل لكل العمل الفكري الذي قام به «البعثيون» و«الاشتراكيون» منذ الاربعينات حتى الثامن من آذار. فالمشترك بين «حزب البعث العربي الاشتراكي» الاول وبين الحزب اياه الذي نشأ بعد الثامن من آذار وتوسع بسرعة فأعضاؤه بالالوف، هو الاسم. الاسم وحسب. وعبثاً حاول ميشيل عفلق انقاذ ما يمكن انقاذه في اعادة النظر في «المقدمة» التي هي تقريباً ثلث «المنطلقات» بشواهد من كتابه «في سبيل البعث».

يبدو لي ان احدا لم ينتبه الى التناقض الصارخ بين المقدمة «العفلقية» وبقية «المنطلقات» التي هي نص شيوعي رديء الصياغة، ما يدل الى عدم الاهتمام. على اي حال، فالقطيعة كاملة ويجب ان تكون كاملة بين ماضي الحزب وحاضره.

القطيعة هذه انجزتها «الحركة التصحيحية» اذ تجاوزت دفعة واحدة الجهود التي بذلها اولاً امين الحافظ ومن ثم، بعد انقلاب ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦، صلاح جديد، بمد جسر بين ماضي الحزب وحاضره من اجل بناء سورية جديدة هي التي نطلق عليها اسم «سورية حافظ الاسد».

قامت «حركة الثامن من آذار» كرد فعل على «الانفصال البغيض» كما كانوا يرددون. وكان العزل المدني بمثابة حكم بالموت السياسي على الانفصاليين. قلت: فعلام باءت بالفشل محادثات الوحدة؟ لا بل يبدو من نصها الكامل كما اذاعته ادارة عبد الناصر وكأنها وجدت لتفشل.

يلي «حزب البعث العربي الاشتراكي» الذي اعلنته المادة ٨ من الدستور «قائدا للدولة والوطن». ويتألف من قيادتين كما اشرت الى ذلك: القيادة القومية لشؤون الوحدة وعمليا للعلائق مع الاحزاب المناصرة لنا في الوطن العربي وخارجه، فوظيفته بروتوكولية. وتتعدد مكاتب القيادة القطرية بتعدد المشكلات التي على الحكم ان يتصدى لمعالجتها. فمكتب للزراعة والمزارعين، وآخر للثقافة، وثالث للتعليم العالي، ورابع للعمال والصناعة. والمكاتب هذه هي حضور الحزب في الادارات الكبرى التي هي الوزارات. وقد انشئت عام ١٩٧٢ وبموجب المادة ٨ من الدستور «الجبهة الوطنية التقدمية» حيث جمع الرئيس من الاحزاب والتشكيلات السياسية المعزولة مدنياً، اولئك الذين يدينون بالولاء له وللحزب ليتعاون معهم نظرياً في معالجة مشكلات السياسة السورية العليا. الا ان اياً من هذه التشكيلات «الجبهة الوطنية التقدمية» لا يتجاوز عملها الروتين العادي اليومي، اذ ان المبادهة بيد الرئيس وقد تتم بأمر صريح منه.

الحلقة الثالثة، من بناء موقتاً على مضض. الاحكام العرفية والتشريعات الاستثنائية صارت جزءاً لا يتجزأ من التشريع العادي. و«حالة الطوارئ» المعلنة في ١٩٦٣ دخلت في سياق حياتنا اليومية فنسيناها. والناس يتبارون في التعبير عن ولائهم بحيث نشأ نوع ادبي جديد سيطلقون عليه اسم «ادب النفاق».

علام اخافهم المجتمع المدني؟

ويسأل حفيدي: اوقمنا بهذه الرحلة الشاقة في تاريخ سورية المعاصرة لنعلق الهوية القومية التي كانت نقطة انطلاقنا، ونصل الى تحصيل حاصل وهو ان هويتنا السورية سورية؟!

قلت: لكنا تخلينا عن الهوية السورية ذاتها، لو عرفنا ان الثمن الذي سندفعه باهظ الى درجة تفوق كل تصور! (راجع كتاب حقوق الانسان والديمقراطية في سورية نشر «اوراب». ففيه شهادات ١٨ باحثاً سورياً تشكل لوحة كاملة عن الحياة الاجتماعية والسياسية في سورية اليوم، تضاف اليها عشر ملاحق عن التعذيب في السجون السورية؟)

الأمة، يا حفيدي، يصنعها أبناؤها وتصنعهم. والأمة أبناؤها، يصنعنا كلنا التاريخ ونصنعه. يصنعنا أكثر بكثير مما نصنعه.

قال: عَلام يا جدي ما نزال نكرر الشعارات التي كنتم تكررونها في الاربعينات والخمسينات: وحدة، حرية، اشتراكية، في حين يتبين من كلامك أننا فقدنا الحرية، والوحدة تخلّينا عنها، والاشتراكية مؤجلة؟

قلت: لأننا اسرى عاداتنا. ومن ثم ففي نفوس ابناء جيلي حنين الى شبابنا ننقله الى احفادنا.

قال: و«الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة»؟

قلت: هذه كانت لفتة فاشية، وهي اليوم لفتة «دونكيشوتية»!

قال: ماذا بعد «الثامن من آذار» و«الحركة التصحيحية» يا جدي؟

قلت : ان اهم ما تحقق بعد «الثامن من آذار» و«التصحيح» هو رد الاعتبار للرأي الآخر، اعلن عنه الرئيس بشار الأسد في بيان ألقاه امام مجلس الشعب بتاريخ ١٧ تموز (يوليو) ٢٠٠٠، بعد تأدية القسم الدستوري الذي جعل منه رئيساً لـ«الجمهورية العربية السورية». اذ قال :«الديموقراطية واجب علينا تجاه الآخر قبل أن تكون حقاً لنا». هذا الكلام نقض لـ«آذار» ولـ«التصحيح». أي للحكم الشمولي.

كما أن بشاراً رئيس مدني، وبوصفه كذلك فهو نقض للحكم العسكري المستمر عملياً منذ حوالى نصف قرن. فتدشين «الرأي الآخر» اعاد لي، اعاد للمثقف الحق بالكلام، اذ «لا يمكن ان تبقى سورية مملكة الصمت» كما قال رياض الترك. و الكلام هو ما يميز الانسان عن الحيوان. واول كلام المطالبة بانهاء المجتمع الشمولي نصّ عليه «بيان الـ٩٩» مثقفا في ايلول (سبتمبر) العام ٢٠٠٠، في ثلاثة بنود: ١- الغاء حالة الطوارئ و الأحكام العرفية. ٢- العفو عن المعتقلين السياسيين وعن معتقلي الرأي و السماح بعودة المنفيين. ٣- ارساء دولة القانون واطلاق الحريات العامة والاعتراف بالتعددية. فكل اصلاح، اقتصادياً كان أو ادارياً أو قضائياً، يجب أن يبدأ باصلاح سياسي. ومن ثم تأسيس «لجان للدفاع عن حقوق الإنسان» وقد نشرت تقريرها الاول في نيسان (ابريل) ٢٠٠١ .

الخطوة الثالثة على طريق تحرير الانسان السوري كانت بيان «لجان احياء المجتمع المدني» المعروف بـ«بيان الألف» نشر اوائل كانون الثاني (يناير) ٢٠٠١. وعلى رغم تداخل أفكاره وضعف الترابط بينها، فيه أفكار اساسية جداً اهمها انه طالب بـ«اقامة مؤسسات مجتمعية واجتماعية متحررة من هيمنة السلطة التنفيذية والأجهزة الأمنية التي تعطي لنفسها جميع الصلاحيات. والتحرر ايضا من الروابط العشائرية والطائفية لاقامة التوازن الضروري بين المجتمع والدولة». البيان هذا أقلق السلطات الحاكمة لأنه يطالب في فقرتيه الأخيرتين بـ«اعادة النظر في مبدأ الحزب القائد للمجتمع». كما يدعو من جهة اخرى الى تشكيل «لجان لاحياء المجتمع المدني». وهذه اخذت شكل نواد رأى فيها المثقف وسيلة تمكنه من التعبير بحرية عن أفكاره ومن مناقشة هذه الأفكار.

وتتكاثر هذه النوادي بسرعة فتضع السلطة شروطا تعجيزية لممارستها نشاطها ثم تعلّقها. ويتصدى بعض من مثقفي السلطة ومن رجال السلطة المثقفين للرد على المثقفين ومقارعة الحجة بالحجة. فثمة أربع مقالات نشرت في صحيفة «المحرر نيوز» التي صارت «المحرر العربي» ومحاضرة للرئيس عبد الحليم خدام النائب الاول لرئيس الجمهورية. وفي رأيه أن نشرات المثقفين تهدد «الوحدة الوطنية ومعها أمن البلد و استقراره». وفي المقالات أن «هدف المثقفين هو تفجير السلطة القائمة لحساب جهات أجنبية. اما الديمقراطية التي يطالبون بها، فبالاضافة الى محاذيرها الكثيرة، ومن جملتها انها تسوّي في التصويت بين العالم و الجاهل، و تقوم، كما في لبنان ، على شراء الأصوات، فهي عندنا « قنبلة موقوتة».

وتساءلت وأنا أقرأ مقالة «مصدر وثيق الصلة بالسلطة» علامَ يبدو له المجتمع المدني هو الاكبر تدميراً للنظام القائم بحيث يرتأي انه : اذا عجزت السلطة عن قمع المثقفين، فلا بد عندئذ من اللجوء الى الأجهزة السرية. وفي اعتقاده أن المؤسسات المستقلة التي تطالب بها «جماعة المجتمع المدني» تفسح المجال لتسرب مؤسسات اخرى صهيونية وماسونية واسلامية الى داخل الوطن.

ثلاثة امور تسترعي الانتباه في هذه المساجلات: الاول، المبالغة في اتهام انصار المجتمع المدني. قلت : أويمكن لمثقف لا يملك سوى قلمه ان يهدد حكماً بيده القوى الضاربة كلها؟ هذا مع العلم أن بيانات المثقفين ومناقشاتهم وصراعاتهم مع السلطة سوف يمضي زمن طويل قبل أن يهتم بها الشعب بحيث تصير لها قيمة سياسية اجرائية. اما أن تكون للمثقفين كلهم أو بعضهم، اتصالات مع الاجنبي، فسؤال ميشيل كيلو في مقال معروف «كلام غير مسؤل»: عَلام لم تقدمونا حتى اليوم الى المحاكمة؟ هو بمثابة تحد لم ترد عليه السلطة.

الثاني، هو أن المعركة الكلامية هذه تدور في لبنان. قلت: اذا كانت الصحف السورية لا تنشر مقالاً لمثقف يناقش فيه السلطة، فعلام ينشر اركان السلطة ومثقفوها هم ايضا في صحيفة لبنانية؟ أليس لأنهم يخشون أن يصير الرأي العام السوري طرفاً في مساجلات. الأفضل عندهم أن تبقى ضمن حدود ضيقة.

الثالث، هو أن أياً من الطرفين لم يخطر في باله تعريف هذا الجهاز الخطر الذي اسمه «المجتمع المدني».

صرح مصدر مسؤول في حزب «البعث» (عن صحيفة «الحياة» في تاريخ ٢٠٠١/٢/٢١ بعيد انتخاب ارئيل شارون رئيساً للوزارة الإسرائيلية) أن القيادة «تحركت لان المثقفين تجاوزوا الثوابت الوطنية». ويبدو من التصريح ان القيادة «البعثية» واثقة من ذاتها، فعدد «البعثيين» يكاد يقارب المليونين وهي مصممة على ان تنازل المثقفين في عقر دارهم. فقد كلفت ١٧ من اعضائها بشرح موقف «البعث» من بيانات المثقفين في اطار التطورات الاقليمية والدولية. ومن ثم فان مثقفي البيانات ليسوا أكثرية، بدليل ان ٧٠ في المئة من اساتذة الجامعة وعددهم حوالى أربعة آلاف استاذ منتسبون الى حزب «البعث». كما ان اثنين من هؤلاء الاساتذة على الأقل يشتركون في المناقشات التي تعقب كل احد محاضرات منتدى جمال اتاسي لشرح موقف «البعث» من القضايا التي تعالجها المحاضرة.

وكان الرئيس بشار أكد تمسكه وتمسك السلطة بالثوابت إيّاها وعددها خمسة: الوحدة الوطنية، حزب «البعث»، نهج الرئيس حافظ الأسد، القوات المسلحة، القضايا الكبرى للسياسة الوطنية العليا. هذه لا تمس ومن الضروري التزام الجميع بها. و كلها تؤكد أن موضوع السجال –الصراع بين المثقفين و السلطة الحاكمة – هو دائماً النظام الشمولي الذي يتجسد في السلطة إيّاها. وهي دوماً جاهزة للدفاع عنه بوسائلها الكثيرة لان مصالحها مرتبطة به.

والسؤال الذي تطرحه على الثوابت اياها: ما هو نهج الرئيس حافظ الأسد؟. اجد الجواب عند خليفته الدكتور بشار الأسد الذي يؤكد في الأسطر الأولى من بيانه امام مجلس الشعب الذي أشرت اليه: «لقد هيأ لنا القائد الخالد أرضية صلبة من القيم والمبادىء، اضافة الى البنية التحتية والانجازات الكبيرة في المجالات كافة وعلى امتداد ساحة الوطن العربي. نحن مطالبون ليس بالحفاظ على هذا التراث وحسب بل ايضا بتطويره.

وليس هذا بالامر السهل في ظروف كانت وما تزال تتبدل متسارعة». ويبدو لي ان البيان اياه كله هو بمثابة عرض لمشروع تطوير تراث حافظ الأسد الذي هو بالنتيجة مشروع تحديث سورية وتعترضه عقبات كثيرة يجب تذليلها كي نتمكن من مباشرة التطوير، وتتركز العقبات في مجالين هما: البيرقراطية، وقصور الإدارة. وكلاهما يؤثر بشكل سلبي في كل القطاعات من دون استثناء على مسيرة التنمية والبناء.

كان الرئيس حافظ الأسد أول من انتبه، لكن في السنوات الأخيرة من حياته، الى الفساد الذي استشرى في الدوائر الحكومية كلها، العليا منها والدنيا، وبدأ بتصفية واحد من رموز الفساد هو رئيس الوزراء يومها محمود الزعبي . كما رأى ان لا بد من اعادة فتح الاقتصاد السوري كي يعيد اليه الحياة. ومعلوم أنه اصدر المرسوم الرقم ١٠ لتحقيق هذا الغرض. هذا الاجراء كان بمثابة عودة الى التاريخ الذي أوقفه النظام الشمولي كي يكتب تاريخه الخاص الذي هو تاريخ بناء «سورية الأسد».

* مفكر سوري.

ألف وجه ألف عالم

"سندريلا" روسيني: الدراما والعاطفة والأوبرا الجديدة

■ منذ ظهور حكاية «سندريلا» للمرة الأولى، والتقاط الجمهور لها بصفتها حكاية اطفال، تسري عنهم قبل النوم اذ تحكيها لهم الأمهات درساً في الإنسانية والأخلاق، وهذه الحكاية الحاملة ألف دلالة ودلالة، تفتن الصغار، لكنها لم يفتها بين الحين والآخر ان تفتن الكبار ايضاً. وفي اطار الافتتان الأخير الذي يستند الى باطن ما في الحكاية من ابعاد سيكولوجية واجتماعية، وربما طبقية – مضمنة – ايضاً، صير دائماً الى اقتباس هذه الحكاية، في انواع أخرى من الفن، غير الفن المكتوب. وهكذا شاهدناها ممسرحة، وفي السينما، وفي الفن التشكيلي، لكننا شاهدناها واستمعنا إليها ايضاً مموسقة، احياناً في شكل متتابعات سيمفونية وأحياناً في شكل أوبرا.

ومن المؤكد ان «سندريلا» حققت، في الموسيقى، نجاحها الأكبر حين ظهرت في شكل اوبرا، لا سيما حين اشتغل عليها الإيطالي الكبير جاكومو روسيني ووضع لها تلك القوالب الموسيقية الرائعة التي لا تزال حية حتى ايامنا هذه، تشي بكم ان في مقدور ثنايا هذه الحكاية ان تقدم من الأحاسيس ومجالات التفاعل الذاتي مع عمل يبدو للوهلة الأولى شديد البعد من الذات.

● لم يكن روسيني اول من فكر بتحويل حكاية «سندريلا» الى أوبرا، اذ سبقه الى ذلك ثلاثة من المؤلفين الموسيقيين الذين كان كل منهم شهيراً في زمنه وعلى طريقته، لكنهم جميعاً افتقروا الى ذلك القدر من العبقرية الموسيقية الذي تمتع به روسيني.

ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ظهرت أوبرا بالاسم نفسه للفرنسي جان – لوي لارنيت (١٧٣١– ١٧٩٢)، وفي العام ١٨١٠ قدم في باريس العرض الأول لأوبرا بالاسم نفسه لحنها نيكولا ايزدار (١٧٧٥– ١٨١٨)، وقبل ذلك بعام كانت قدمت في مدينة سانت بطرسبورغ (روسيا) اوبرا «سندريلا» لدانييل شتيربرت (١٧٦٥– ١٨٢٣).

غير ان تلك الحكاية كان عليها ان تنتظر العام ١٨١٧، قبل ان تجد معادلها الموسيقي الكبير، حين قدم روسيني اوبراه للمرة الأولى في روما، انطلاقاً من نص كتبه جاكوبو فيريني. وكانت اوبرا «سندريلا» ثاني عمل كبير يكتبه روسيني لهذا الفن الذي يعتبر دائماً فناً ايطالياً بامتياز، وكانت اوبراه السابقة «حلاق اشبيلية» حققت نجاحاً كبيراً دفع بصاحبها الى الذروة.

ومن هنا حيث قدم «سندريلا» كان الجمهور في انتظاره متلهفاً، للتعاطي مجدداً مع موسيقي اثبت جدارته، وخفة ظله، ومعرفته بكيفية التعاطي السيكولوجي مع شخصيات اعماله والمواقف التي تمر بها تلك الشخصيات.

● على يد روسيني جاءت حكاية سندريلا ميلودرامية الطابع لا تخلو من لحظات المرح، طوال الفصلين اللذين قسم الفنان الأحداث عليهما. فهو هنا، وكما سبق ان فعل في «حلاق اشبيلية»، حتى وإن كان البناء لديه جاء هذه المرة – اي في «سندريلا» – اضعف منه في الأوبرا الأولى، لم يفته ان يركز على الطابع الهزلي – الدرامي للعمل. ولعل ما اجبر روسيني على هذا هو ان النص الذي لحنه خلا اصلاً من الأحداث الخابطة، التي يمكن ان تعطي الملحن مجالاً للإبداع والتصعيد. فإذا أضفنا الى هذا عدم تركيز النص على الأبعاد التي يمكن ربطها بالعديد من الشخصيات الثانوية – ما كان من شأنه ان يضفي على البعد الدرامي تنويعات تلاحق تنوع الشخصيات – يمكننا ان نفهم «العجزة» الصغيرة التي تمكن روسيني من تحقيقها، اذ اشتغل على نص فقير فأضاف إليه غنى ما بعده من غنى.

● وما لا شك فيه ان روسيني استغل الى ابعد حدود الاستغلال تلك العبارة التي كانت الحكاية تحملها في الأصل كعنوان ثانوي «انتصار الطيبة»، ما جعله يركز في موسيقاه كلها، لا سيما في التوزيع الأوركسترالي في المواقف الدرامية، على نغمات حنون تسر بمكنونات فؤاد بطلته الصغيرة، ومن ثم بمكنونات صدر الأمير حين يقع في غرام فاتنته الغامضة ويبدأ رحلة البحث عنها. ومن الواضح ان روسيني، اذ ضمّن الجانب الميلودرامي من موسيقاه عبر الألحان التي اشتغلها بالترابط مع هاتين الشخصيتين: سندريلا وأميرها، التفت الى الجانب الهزلي ليؤمنه بفضل شخصيتين على الأقل، اتت كل الألحان المتعلقة بهما لتذكرنا بأجمل لحظات «حلاق اشبيلية»: شخصية دون ماغنيفيكو، والد سندريلا المبتذل والذي غالباً ما نراه يتواطأ بخسة مع اختيها ضدها، وشخصية الوصيف داديني، الذي ارسله الأمير دون روميرو ليبحث له عن فتاته الضائعة.

● غير ان هذه اللمسات الروسينية، تظل ثانوية الأهمية في مقابل التجديد الأسلوبي والقلب الموضوعي اللذين حققهما روسيني في مجال تفسيره لشخصية سندريلا، موسيقياً على الأقل. سندريلا هنا ليست فقط ضحية بائسة متواضعة، تدفع طيبتها الآخرين، بل حتى القراء، الى النظر إليها على انها حمقاء حقيقية. بل انها فتاة ماكرة في الوقت نفسه، إذ اننا، ذات لحظة، نكتشف انها تعرف حقوقها، وأن في امكانها ان تكون هي الأخرى ساخرة من الآخرين، لا سيما حين يتبين لنا مدهوشين – اذا كنا من قراء الحكاية الأصلية واتخذنا لأنفسنا صورة معهودة لسندريلا – ان هذه المراهقة المظلومة، تعرف الكثير عن جشع اهلها ومخاتلتهم، وأنها لئن كانت صامتة عن ذلك، فلأنها تعرف ان ساعة عتقها ومكافأتها آتية لا محالة. والحال ان ادراكنا هذا، وسط عرض الأوبرا، يضفي على الحكاية كلها معاني اخرى لا تكون اصلاً في البال.

وما لا شك فيه هو ان روسيني عرف كيف يرسم هذا كله في موسيقاه، وكذلك في اختياره نوعية اصوات ممثليه/ مغنيه الرئيسيين، ثم خصوصاً في تلك اللحظات الحاسمة، حين تأتي الموسيقى، من دون مغنين، محاولة ان تقدم شرحاً لما يحدث، ذلك ان روسيني يعمد هنا، كما كان دأبه، وسيظل على الدوام، الى تقديم موسيقى تفسيرية تضع متفرجه/ المستمع، في قلب الحدث ناقلة إليه ما يشاء من عواطف.

● مهما يكن من الأمر، وإن ظلت اوبرا «حلاق اشبيلية» هي الأشهر والأقوى بين اعمال روسيني جميعاً، فإن «سندريلا» التي لحنها وكان بعد في الخامسة والعشرين من عمره، تعتبر واحدة من اجمل اعماله وأكثرها شفافية. ويرى كثر من النقاد انها من الناحية الموسيقية البحتة، وبصرف النظر عن المضمون الذي يحمله العمل، تعتبر فتحاً في عالم الأوبرا الكوميدية، حيث ان لحظات الانتقال فيها بين ما هو درامي وما هو هزلي، بالكاد تبدو واضحة – موسيقياً – وهو كان تجديداً في ذلك الحين، سيسير كثر على هديه مقلدين روسيني (١٧٩٢ – ١٨٦٨)، لا سيما منهم الفرنسي ماسينيه حين لحن بدوره اوبرا «سندريلا» في العام ١٨١٩.

ابراهيم العريس

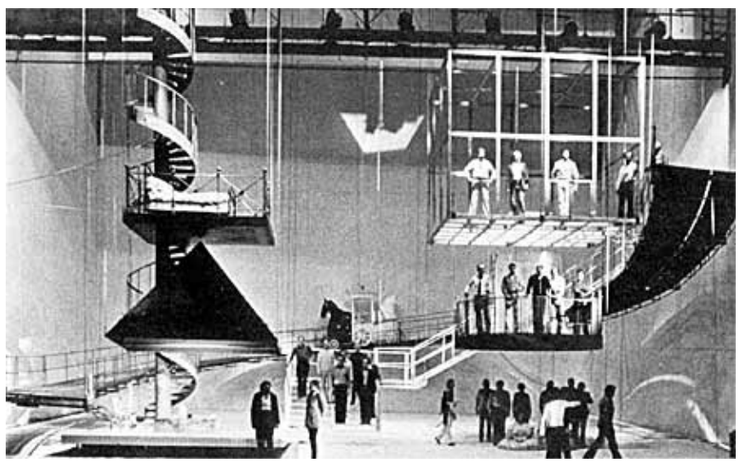

مشهد من «سندريلا» لروسيني.